مجلة (لغة – كلام) تصدر عن مخبر اللغة والتواصل- جامعة غليزان / الجزائر
ISSN : 2437-0746 / EISSN: 2600-6308
رقم الإيداع: 2015 - 3412
مصنفة ج : قرار 1432 بتاريخ 2019/08/13
http://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/176
المجلد 09/ العدد: 01 / جانفي (2023) - ص 164-176

المنهج الوصفي في كتاب سيبويه- قراءة في بعض أبحاث العرب المحدثين-

The descriptive approach in : Sibawayh's book: A critical reading in some modern arabic researchs

د. زيار فوزية
fouzia.ziar@univ-mosta.dz
جامعة عبد الحميد بن باديس مستغانم/ الجزائر

تاريخ الاستلام: 2022/09/17 تاريخ القبول: 2022/12/23 تاريخ النشر: 2023/01/10

ملخص البحث

نحاول في أسطار هذه المداخلة تقديم قراءة تحليلية لبعض الدراسات العربية التي أخذت على عاتقها الكشف عن الجانب الوصفي في كتاب سيبويه وما اعترى ذلك من قضايا كالسماع والقياس والاستقراء، اللغة المنطوقة واللغة المكتوبة... مع محاولة مناقشة أراء هؤلاء، ثم استثمار منهجهم في إعادة تبويب بعض القضايا النحوية وتفسيرها الأمر الذي من شأنه تمكين المتعلم من فهم الكثير من المسائل النحوية وفق رؤية لسانية حديثة.

الكلمات المفتاحية: سيبويه، الكتاب، المنهج الوصفي، السماع، الاستقراء

ABSTRACT:

In the lines of this intervention, we are trying to provide an analytical approach in the reading of some arabic studies that have carried out the descriptive aspect in : Sibawayh's book, as well as, its related tool issues like the hearing, the measurement, the extrapolation, the spoken and the written languages. The present study is also an attempt to review the strategies beyond them when investigating the reprinting and the interpreting in certain grammatical issues. This would enable the learner to understand many grammatical issues fulfilling to a clear and modern linguistic vision.

Keywords: Sibawayh , Arabic linguistics, Descriptive approach, Hearing, Extrapolation

1. مقدمة:

لسنا هنا بصدد الخوض في مسألة نشأة النحو العربي وريادة العرب في هذا المجال، ولا في قضية أصالة النحو العربي أو عدم أصالته وما تبع ذلك من اتهامه تارة بالتقليد وأخرى بالجمود، وإنما موضوعنا هو القفزة النوعية التي عرفها هذا العلم في التأليف ونعني بذلك "كتاب سيبويه" الذي مثل ولا يزال أرقى ما يمكن أن يصله التقعيد للغة العربية بنظامها وكافة استعمالاتها كيف لا وقد نُعت بقرآن العرب، حتى أنه أُثر أن البعض كان يفتي من الكتاب، ووصل الأمر ببعض المحدثين إلى اعتباره قسيما لمؤلف دي سوسير في اللسانيات "محاضرات في اللسانيات العامة" وإذا كان هذا الأخير بمثابة أب اللسانيات الحديثة وصاحب الفضل في إرساء منهج جديد في دراسة اللغة، فإن بعض المحدثين لم يجدوا حرجا من وصف منهج سيبويه بالمنهج الوصفي وراحوا يتتبعون مختلف القضايا التي تمت لهذا المنهج بصلة، وعليه سنكتفي بإبراز ملامح المنهج الوصفي في الكتاب وفق مقاربات بعض العرب المحدثين وإن كنا نتحفظ على الكثير من الملاحظات ونرى فيها نوعا من المبالغة حينا والتعسف أحيانا أخرى.

وعليه سنحاول الإحاطة بالإشكالية الآتية: ما حدود حضور ملامح المنهج الوصفي في كتاب سيبويه، وهل يمكن استثمار ذلك في إعادة تبويب المسائل النحوية وتقريبها إلى المتعلم من وجهة لسانية عربية حديثة؟

من أهداف البحث:

- مناقشة مسألة المنهج عند سيبويه.
- تقديم قراءة تحليلية للمقاربات الحديثة التي تناولت مسألة المنهج في الكتاب بالدراسة والتحليل.
- بيان أهمية الاستعمال في النحو عند سيبويه.
- التعريف بالمنهج الوصفي وتتبع أثره في الكتاب.

2. التعريف بسيبويه وبالكتاب:

1.2 سيبويه:

سيبويه هو أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي (ت 180هـ)، صاحب أعظم مؤلف في العربية المسمى (بالكتاب)، قرآن العربية ومرجعها الأول تلميذ الخليل وأشهر نحاة البصرة، من موالي بني الحارث بن كعب، من أهل فارس وقبره بشيراز، ومن طلابه: قطرب (ت 206هـ) والأخفش الأوسط- سعيد بن مسعدة- (ت215 هـ).

ويعتبر كتابه في النحو أعظم ما وصل إلينا من كتب المتقدمين، وضع قواعده على نحو مضبوط استحال على من جاء بعده أن يزيد أو ينقص فيه، ويرجح أكثر الدارسين أن الذي عقد النحو هذا

العقد الذي لم ينقض أستاذه الخليل بن أحمد الفراهيدي ولما أسن أراد أن يلقي علمه إلى من يزكو عنده وينمو ، فألقاه إلى سيبويه[1].

ومهما يكن من أمر أصل الكتاب فإن فيه نقلا عن علماء كثيرين، منهم الخليل بن أحمد الفراهيدي الذي حفل الكتاب بأقواله وآرائه، فعندما ترد عبارة "سألته"، أو "قال" أو "أنشدنا"، فإنما يعني الخليل، ومنهم يوسف بن حبيب البصري، وأبو الخطاب الأخفش، وعيسى ابن عمر، وأبو عمرو بن العلاء، وما نسب إلى عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي، وأبي الأسود الدؤلي، والأصمعي، ...

وعليه يمكن أن ننتهي إلى أن التأليف النحوي عمل تراكمي، لا يمكن أن ينسب إلى نحوي دون غيره.

إلى أن سيبويه لم يأت بمصطلحات (نحوية) جديدة؛ بل استخدم ما كان النحاة العرب القدامى يستخدمونه، في كلامهم. ويستدل تروبو (G .Troupeau) لتأكيد صواب ما ذهب إليه، بأن معاصري سيبويه كانوا يفهمون تلك المصطلحات، بدون أن يقوم هو بتفسيرها، كدليل على رواجها، أصلاً، بين النحويين ورواة الأدب[2].

والحق يقال إن ما قاله المستشرق الفرنسي السالف الذكر، يتماشى مع ما أورده ابن النديم صاحب "الفهرست" حين نقل رواية عن أبي العباس ثعلب، يقول فيها: "قرأتُ بخطّ أبي العباس ثعلب: اجتمع على صنعة كتاب سيبويه اثنان وأربعون إنسانا، منهم سيبويه"[3] مؤكداً أن الأصول والمسائل تعود للخليل بن أحمد الفراهيدي.

إن كتاب سيبويه هو أول كتاب نحوي وصل إلينا، جمع فيه عددا من علوم العربية كالنحو والصرف، والأصوات اللغوية، وغيرها، وما ميزه هو كثرة الاستشهاد بالقرآن الكريم، وغياب الاستشهاد بالحديث النبوي الشريف إلا قليلا؛ نظرا لأن بعضها قد رُوي بالمعنى لا باللفظ، وكان هذا ديدن أغلب النحاة، وكذا الاستشهاد بأشعار شعراء عصر الاحتجاج وبأمثالهم وفصيح كلامهم، كما تميز الكتاب بغموض الكثير من المصطلحات حين تقسيم أبوابه وكثرة الإيجاز الأمر الذي يستدعي إعمال النظر لفهم المقصود من تقسيم الأبواب وتسمية المصطلحات حيث لم يضع سيبويه عناوين واضحة لهذه الأبواب من قبيل: "هذا باب نظائر ضربته ضربة ورميته رمية"، فسمّاه النحاة بعده "باب المرّة"، وكأنه يقول: "هذا باب اشتقاقك الأسماء لمواضع بنات الثلاثة التي ليست فيها زيادة من لفظها"، وسمّاه النُّحاة بعده "المكان المشتق"، و"باب الفاعليْن والمفعوليْن اللذين كلّ واحد منهما يفعل بفاعله مثل الذي يفعل به وما كان نحو ذلك"، فسمّاه النحاة باب "التنازع"، واعتمد سيبويه في توضيح الأبواب على ذكر أمثلة لتوضيح مقصده. ويفسر هذا بعدم انتظام المصطلحات وتقسيم الأبواب على غرار ما جاء في مؤلفات المتأخرين الذين اشتغلوا بالشرح والدراسة والتلخيص.

افتقاده للترتيب المنظم في أبواب النحو على غرار ما ورد عند المتأخرين فقد بدأه بباب علم الكلام من العربية، ثم باب مجازي الكلام من العربية، فباب المسند والمسند إليه، فباب اللفظ للمعاني، فباب ما يكون في اللفظ من الأعراض فباب الاستقامة من الكلام والإحالة، فباب ما يحتمل

الشعر، فباب الفاعل الذي يتعداه فعله إلى مفعول، والمفعول الذي لم يتعد إليه فعل الفاعل، ولم يتعدّه فعله إلى مفعول آخر...

2.2 منهج سيبويه في الكتاب: هل كان منهج سيبويه منهجا وصفيا؟

المنهج أو المنهاج في اللغة الطريق الواضح البيّن، جاء في لسان العرب: طريقٌ نَهْجٌ: بَيِّنٌ واضِحٌ، وهو النَّهْجُ؛ والجمعُ نَهجاتٌ ونُهُجٌ ونُهوجٌ؛ وطُرُقٌ نَهْجَةٌ، وسبيلٌ مَنْهَجٌ: كَنَهْجٍ. والمِنهاجُ: كالمَنْهَجِ، وفي التنزيل: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ سورة المائدة الآية: 48

أي سبيلا وسنة، وأَنهَجَ الطريقُ: وضُحَ واسْتَبانَ وصار نَهْجاً واضِحاً بَيِّناً؛ والمِنهاجُ: الطريقُ الواضِحُ. واسْتَنْهَجَ الطريقُ: صار نَهْجاً. ونَهَجتُ الطريقَ: سَلَكتُه. وفلانٌ يَستَنهِجُ سبيلَ فلانٍ أَي يَسلُكُ مَسلَكَه. والنَّهْجُ: الطريقُ المستقيمُ[4].

أما في **الاصطلاح** فيقصد به: الاتجاه أو الخطة التي يسير وفقها الباحث قصد الوصول "إلى استنباط الأحكام العامة والنتائج الكلية، والخروج بالمبادئ والنظريات التي تمثل العلوم والمعارف"[5]، وإذا كان لكل علم منهجه فإن لعلم اللغة مناهج مختلفة، ويعد المنهج الوصفي من أكثر المناهج في تناول الظاهرة اللغوية شيوعا في البحث.

وإذا كان البحث اللغوي عند الغرب قد بدأ تاريخيا، ثم مقارنا، ثم وصفيا نتيجة الطفرة النوعية في الدراسة التي ابتدعها دي سوسير حين أصر على دراسة اللغة في ذاتها ومن أجل ذاتها[6]، فإن الدراسات اللغوية العربية كانت بعيدة عن التتبع التاريخي للّغة، ولم تكن المناهج غائبة عن كافة العلوم الإسلامية واللغوية، ذلك لأنها نشأت في مناخ فكري عام هدفه خدمة القرآن الكريم والحفاظ على لغته.

سارت مرحلة التقعيد للغة العربية وضبطها وفق منهجية دقيقة بدءا من جمع المادة اللغوية من أفواه متكلميها ممن ثبتت فصاحتهم، وملاحظتها واستقراء أصولها العامة، انتهاء إلى وضع الضوابط التي تعصم اللسان من اللحن، ويؤكد تمام حسان أن النحو العربي قد كان وصفيا في بدايته يقول:" إن تاريخ اللغة العربية، يقوم على جمع المادة وروايتها، ثم ملاحظة المادة المجموعة واستقرائها والخروج بعد ذلك بنتائج لها طبيعة الوصف اللغوي السليم"[7].

ذلك أن قواعد اللغة العربية قد نشأت من تأملات العلماء في اللغة المحكية عن طريق الملاحظة فالاستقراء، ثم وضع القواعد والأصول تبعا لذلك والحديث عن جمع اللغة طويل لا يسعنا توثيقه في أسطار هذا البحث وما يهنا هو اعتماد النحاة في البداية على السماع، لكنهم في مراحل متأخرة انتهجوا سبلا أخرى من الاستدلال كالقياس والتعليل والسبر والتقسيم، والاستدلال بالأولى ... ويؤكد هذه الحقيقة ابن السراج (316هـ) في أصوله على أن النحو" علم استخرجه المتقدمون فيه من استقراء كلام العرب حتى وقفوا منه على الغرض الذي قصده المبتدئون بهذه اللغة "[8]، وهذا يقترب بشكل ما من المنهج الوصفي الذي يأخذ على عاتقه وصف الحقائق لا فرض القواعد، والدراسة

الوصفية "تختار مرحلة بعينها، من لغة بعينها لتصفها وصفا استقرائيا، وتتخذ النواحي المشتركة بين المفردات الداخلة في هذا الاستقراء وتسميها قواعد والقاعدة في الدراسة الوصفية ليست معيارا، وإنما هي جهة اشتراك بين حالات الاستعمال اللغوي"[9] وهذه الحقائق نلمسها في كتاب سيبويه وسنفصل أكثر من خلال قراءة في مؤلفيْن أخذ فيهما الباحثان على نفسيهما إثبات أن منهج سيبويه كان وصفيا مستدلان على ذلك بجملة من المبادئ اعتبرها المحدثون من أساسيات الدراسة العلمية والموضوعية للغة.

المؤلف الأول هو: "**النحو العربي والدرس الحديث بحث في المنهج لعبده الراجحي**"، والثاني هو: "**المنهج الوصفي في كتاب سيبويه لنوزاد حسن أحمد**"، هذا الأخير يعتبر من أهم الدراسات التي حاولت تأصيل المنهج الوصفي في كتاب سيبويه.

- تناول **عبده الراجحي** في كتابه: نشأة النحو العربي، ومفهوم المنهج الوصفي في النحو والفرق بينه وبين المنهج المعياري، ثم تطرق إلى نفي تهمة معيارية النحو العربي، وأنه أقرب إلى المنطق الأرسطي في مسألة التأثر والتأثير مع المتأخرين، وما يهمنا الفصل الثاني الموسوم بـ: "**الوصفيون والنحو العربي**" الذي عقده لإثبات أن النحو العربي كان وصفيا من خلال جملة من المبادئ، وما يعنينا هو منهج سيبويه في الكتاب.

يلخص **عبده الراجحي** مبادئ المنهج الوصفي عند سيبويه في النقاط الآتية[10]:

أقام سيبويه قواعده في الغالب على فكرة الاستعمال اللغوي وذلك من عدة أوجه:

- يقرر سيبويه أن الأحكام تجري على كلام العرب، ويستدل على ذلك من تواتر عبارات في الكتاب من قبيل: " فأجره كما أجروه " و" ضع كل شيء موضعه" أو " فأجره كما أجرته العرب واستحسنته"[11].

وحين تعارض القواعد الاستعمال اللغوي، يؤيد هذا الأخير، ويقبح أقوال النحاة، لمخالفتها ما نطقت به العرب وتواتر عنها، يقول: "هذا باب ما استكرهه النحويون، وهو قبيح فوضعوا الكلام فيه علي غير ما وضعت العرب"[12].

يصف سيبويه استكراه النحويين بالقبح لأنه يتعارض مع واقع الاستعمال عند العرب، ويؤكد ذلك أحمد ياقوت بقوله: "عندما يتعارض المجالان-أقوال النحاة، الاستعمال عند العرب- فإن سيبويه يحكم على الأول بالقبح، وعلى الثاني بالحسن، ويقرر أن الأحكام إنما تجري على كلام العرب"[13].

- لا يتعسف في تأويل الظواهر اللغوية إذا لم يكن لديه مادة تسند رأيه؛ بل يميل كل الميل إلى الاستعمال ومقررا استحالة الاستقراء التام للكلام، ويستدل الباحث بقول سيبويه: " وكل شيء جاء قد لزمه الألف واللام فهو بهذه المنزلة. فإن كان عربيا نعرفه ولا نعرف الذي اشتق منه فإنما ذاك؛ لأنا جهلنا ما علم غيرنا، أو يكون الآخر لم يصل إليه علم وصل إلى الأول المسمى"[14].

- اعتماده على اللهجات في عملية التحري اللغوي بوصفها جزءا من اللغة الموحدة، وفي الكتاب مادة وفيرة تتبع الاستعمال اللهجي، يرجح فيها سيبويه لهجة على الأخرى حين يرى الاستعمال فيها مطردا في الكلام ويمثل الباحث لذلك بـ (باب اختلاف العرب في الاسم المعروف الغالب إذا استفهمت عنه بمنْ) يقول فيه: "اعلم أن أهل الحجاز يقولون إذا قال الرجل رأيت زيدا: من زيدا؟، وإذا قال: مررت بزيدٍ، قالوا من زيدٍ؟، وإذا قال: هذا عبدُ الله، قالوا: من عبدُ الله؟ وأما بنو تميم فيرفعون على كل حال، وهو أقيس القولين، وأما أهل الحجاز فإنهم حملوا قولهم على أنهم حكوا ما تكلم به المسؤول..."[15] وأهل الحجاز وإن كان اختيارهم ليس بالأقيس تركيبا وإعرابا كما فسر سيبويه إلا أنه أقوى في الدلالة والإبانة عنها، فتركيب الحكاية ينتج من الدلالة ما لا ينتجه التركيب المعيار، بحيث يؤدي معنى التوكيد، لكون التعبير بها تأكيدا أن المسؤول عنه هو نفسه، والعرب قد تلجأ لإضعاف الإعراب لتقوية المعنى وهو ما فسره ابن جني في (المحتسب) بقوله: "إنَّ العرب قد تحمل على ألفاظها ومعانيها حتى تفسد الإعراب لصحّة المعنى"[16]: بل حتَّى العلماء دائما يميلون مع المعنى على حساب الإعراب، وفي هذا يقول ابن هشام : " إذ جعلوا لكل وجه من أوجه الإعراب معنى"[17].

- القياس عند سيبويه ليس سوى متابعة الكلام العربي: " لأن هذا أكثر في كلامهم وهو القياس" وقوله: " فهو قبيح لا تكلم به العرب، ولكن النحويين قاسوه...وأما قول النحويين: قد أعطاهوك وأعطاهوني، فإنما هو شيء قاسوه لم تكلمْ به العرب، فوضعوا الكلام في غير موضعه، وكان قياس هذا لو تُكلم به كان هينا"[18] وقوله: " ولا ينبغي أن تقيس على الشاذ المنكر..."[19].

ومن أمثلة القياس في الكتاب ما ورد في باب: (ما أجري مجرى ليس في بعض المواضع بلغة أهل الحجاز ثم يصير إلى أصله)

في هذا الباب ما النافية من الحروف غير المختصة ؛ أي لا تعمل عمل ليس في رفع الاسم الأول، ونصب الاسم الثاني، وهذا هو القياس، وذلك؛ لأنها ليس بفعل، ولا يكون فيها إضمار، وبناء علي هذا فإنها غير عاملة عند بني تميم "وبنو تميم يجرونها مجري أمّا وهلْ أي لا يعملونها في شيء وهو القياس؛ لأنه ليس بفعل وليس ما كَليْس، ولا يكون فيها إضمار"[20].

أما أهل الحجاز فيلحقونها بـ (ليس) في العمل؛ لشبهها إياها في المعني "وأهل الحجاز فيشبهونها بليس إذ كان معناها كمعناها كما شبهوا بها لات في بعض المواضع"[21] ومثل ذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿ما هذا بشراً﴾ سورة يوسف الآية: 31.

في لغة أهل الحجاز، وبهذا فهي تعد فرعاً على ليس في العمل؛ ولذلك فهي أقل تصرفاً منها فيه، يبطل عملها إذا تقدم خبرها علي اسمها نحو (ما منطلقٌ زيد)، أو نقض نفيها بإلاّ نحو (ما زيد إلاّ منطلقٌ). وقياس الحجازيين قائم على المعنى، ولم يلتفتوا إلى أنه لابد، لما يعمل الرفع والنصب متوالين أن يكون فعلا يصح الإضمار فيه، وقوله " ما هذا بشرا ": "ما " الحجازية العاملة عمل ليس واسمها وخبرها، والجملة مستأنفة في حيز القول.

- تفسيره لمعظم القوانين العامة التي تحكم اللغة بكثرة الاستعمال، ويستدل على ذلك بظاهرة الحذف في قوله: " ويحذفونه فيما كثر من كلامهم، لأنهم إلى تخفيف ما أكثروا استعماله أحوج"[22].

وقوله: "وغيروا هذا لأن الشيء إذا كثر في كلامهم كان له نحو ليس لغيره مما هو مثله، ألا ترى أنك تقول: لم أكُ ولا تقول لم: أقُ إذا أردت أقل... فالعرب مما يغيرون الأكثر في كلامهم عن حال نظائره"[23].

أو قوله: " والترخيم حذف أواخر الأسماء المفردة تخفيفا كما حذفوا غير ذلك من كلامهم تخفيفا... واعلم أن الترخيم لا يكون إلا في النداء إلا أن يضطر شاعر، وإنما كان ذلك في النداء لكثرته في كلامهم، فحذفوا ذلك كما حذفوا التنوين، وكما حذفوا الياء من قومي ونحوه في النداء "[24]

ومن خلال تتبعه للكتاب توصل الباحث إلى أن سيبويه قد "أقام قواعده علي الاستعمال اللغوي"[25]، فاهتمامه بالمسموع من اللغة جرياً علي طريقة أساتذته، ومنهجهم في وصف اللغة، إيمانا منه بأن دراسة اللغة عن طريق السماع، تجعل البحث اللغوي واقعيا بالوقوف على العادات النطقية لمتكلمي اللغة، بالإضافة إلي صدق الأحكام اللغوية المستقراة، بوصف اللغة عن طريق الاتصال المباشر بالمتكلمين، والسماع مباشرة من أفواههم[26].

أما الباحث **نوزاد حسن أحمد** فقد استطاع الكشف عن المنهج الوصفي في كتاب سيبويه، وأن الدرس اللغوي العربي قائم على الاستعمال وفق مستويات اللغة الصوتية والصرفية والنحوية، لينتهي إلى أن صاحبه بنى نظريته اللغوية على العلاقات التي تربط عناصر الجملة في التركيب سواء أكانت معنوية كالإسناد والتخصيص والنسبة والتبعية، أو قرائن لفظية كالحركات الإعرابية وعلاماته، والمطابقة والربط والتنغيم وكل ذلك في أبواب بدت لأكثر الدارسين غير مرتبة ولكنها في الحقيقة قائمة على ترتيب دقيق يتسم بالشمولية وفق منهج استقرائي يبني نتائجه على ثنائية الاستعمال والقياس المبني على الذوق الذي لا يخالف منطق اللغة الطبيعي.

3. أسس المنهج الوصفي في الكتاب:

1.3 السماع:

يعد السماع الأساس الذي يقوم عليه المنهج الوصفي كونه: " الكلام العربي الفصيح، المنقول النقل الصحيح، الخارج من حدّ القلة إلى حدّ الكثرة"[27]، والكلام المسموع "ما ثبت في كلام من يوثق بفصاحته"[28]، ويؤخذ مباشرة ممن يوثق بكلامهم عمن عاشوا في القرن الثاني للهجرة بالنسبة لعرب الأمصار، ونهاية القرن الرابع الهجري بالنسبة للأعراب من أهل البادية ممن ثبتت فصاحتهم[29].

وتكون الخطوات الأولى في هذا المنهج بجمع المادة التي تجري ملاحظتها ودرسها، وتتنوع مصادر سيبويه في السماع فقد تكون عن طريق:

- الأخذ المباشر من أفواه العرب، ويشترط في السماع الفصاحة والثقة نحو قوله: "سمعنا العرب الموثوق بهم"، "سمعنا فصحاء العرب من يقول: ممن يوثق به"، "سمعت من أثق به من العرب"[30].

أو عن طريق شيوخه وهم: عبد الله بن ابي اسحاق(ت147 ه)، عيسى بن عمر (ت 149 ه)، الخليل بن أحمد الفراهيدي (تـ 175 ه)، أبو الخطاب الأخفش الأكبر(تـ 177 ه)، يونس بن حبيب (تـ 183 ه)، أبو زيد الأنصاري (تـ 215 ه)[31].

- ومن حرصه الكبير علي الأخذ من أفواه العرب تأييده المسموع من شيوخه بكلام العرب، علي الرغم من كون شيوخه من الثقة الذين لا يمكن الطعن فيهم، وذلك كقوله: "ويونس يقول: هذا مثلك مقيلاً، وهذا زيد مثلك إذا قدمه جعله معرفة، وإذا أخره جعله نكرة، ومن العرب من يوافقه علي ذلك"[32].

- أخذه اللغة عن عربي واحد، أو عن اثنين، وهذا ما يسمى بالراوي، فهو الممثل الحقيقي للغة، والمعبّر الصادق عنها[33]، وقد يصرح باسم القبيلة المسموع عنها، وقد لا يصرح، ويكتفي بقوله: "ناساً من العرب"[34].

وهكذا يكون أساس المنهج عند سيبويه وصف كلام العرب كما هو، مستندا بذلك إلى واقع الاستعمال اللغوي فالكلام يجري على الطبيعة والوصف اللغوي يكون بحسب ذلك أو كما قال سيبويه "فأجريتها علي ما أجرتها العرب" [35].

2.3 الاستقراء:

اتخذه العلماء الأوائل منهجاً لجمع المادة اللغوية، واستخلاص القواعد الكلية منها، عن طريق الاستقراء من القرآن الكريم، وكلام العرب، ثم استنباط نماذج لغوية، وهذا ما قاد سيبويه إلى أن الكلام لابد أن يُبني من ركنين هما: المسند والمسند إليه، وأن المسند إليه لا يكون إلا اسما، أما المسند فقد يكون اسما، وقد يكون غير اسم يقول: "وهما ما لا يَغْنَى واحدٌ منهما عن الآخر، ولا يَجد المتكلّمُ منه بداً. فمن ذلك الاسم المبتدأ والمبنيُّ عليه. وهو قولك عبدُ الله أخوك، وهذا أخوك. ومثل ذلك يذهب عبد الله، فلا بدَّ للفعل من الاسم كما لم يكن للاسم الأوَّلِ بدٌّ من الآخرِ في الابتداء"[36].

وقد هداه الاستقراء أيضاً أن الكلام العربي مبني ومعرب، وذلك في حديثه عن "باب مجاري أواخر الكلم من العربية"[37].

كما قام بربط منهجه الوصفي بالواقع اللغوي، وتعزيز الأصول المستقراة بالشواهد من كلام العرب، من قبيل: "وهذه حجج سُمعت من العرب، وممن يُوثق به، يزعم أنه سمعها من العرب..."[38] أو قوله: "ويدلّك على ذلك قول بعض العرب..."[39] ليطمئن إلى سلامة نتائج الاستقراء ومصداقيته.

3.3 التصنيف:

لما كانت اللغة تتألف من مستويات يجد اللغوي صعوبة في وصفها ضمن مستوى واحد، من هنا فإن التصنيف اللغوي بحاجة إلي استقصاء ظواهر اللغة بوسائل متنوعة، وذلك عن طريق تقسيمها إلى مستويات لغوية تسهل على اللغوي وصفها وتحليلها.

والتصنيف مرحلة تأتي بعد جمع المادة اللغوية، ودرسها، وملاحظتها، وتحليلها، ونلاحظ أن سيبويه اشتغل في الكتاب بهذا المبدأ من ذلك تقسيمه الكلام: إلى اسم، وفعل، وحرف " فالكلم اسم وفعل وحرف جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل"[40]، وتقسيمه للكلام من حيث الاستقامة والإحالة إلى:[41]

- مستقيم ومحال، فالمستقيم: مستقيم حسن، مستقيم قبيح، مستقيم كذب...
- والمحال: محال كذب...

ويذهب سيبويه إلى أنّ " الفعل المضارع، واسم الفاعل يصنفان تصنيفا واحدا، تبعاً لتأدية كل واحد منها الوظيفة النحوية نفسها، ووقوعها موقعاً واحداً في التركيب"[42]، يقول: " تقول: إنّ عبد اللّه ليفعل، فيوافق ذلك قولك: لفاعل، حتى كأنك قلت: إنّ زيداً لفاعل فيما تريد من المعنى، وتلحقه هذه اللاّم كما لحقت الاسم، ولا تلحق الفعل اللاّم"[43].

4.3 الموضوعية:

لعل أهم سمة يتسم بها الباحث الوصفي هي الموضوعية، وذلك من أجل تحقيق أمرين هما [44]:

- اتصال اللغة بالواقع، فالباحث يدرس اللغة لغرض الدراسة نفسها، فهو يدرس اللغة بذاتها ولذاتها.
- الابتعاد عن أحكام مسبقة لا تمت إلى واقع اللغة بصلة، فوظيفته الباحث وصف المادة اللغوية التي بين يديه كما هي، وليس وضع فرضيات وتأويلات من أجل ملائمة أحكام تجريدية في ذهنه.

لقد التزم سيبويه في مواقع كثيرة من الكتاب بالموضوعية، من ذلك تصريحه بعبارات تثبت التزامه بطرائق العرب في كلامها، وعدم خروجه عما هو في الواقع كأن يقول مثلا: "ولم يؤخذ ذلك إلاّ من العرب"[45]، وهو في وصفه هذا يدعو متكلّم اللغة إلى الالتزام بالموضوعية في البحث يقول: " فإنما ينتهي بها من حيث انتهت العرب"، "فقف على هذه الأشياء حيث وقفوا"، " فأجر الأشياء كما أجروها "[46]، كما أنه استخدم مصطلح الوصف في قوله:" إلاّ أنه علي ما وصفت لك"[47].

ونراه في مواطن أخرى لا يقتصر على الوصف؛ بل يلجأ إلي التفسير والتحليل، دون أن تخرج تفسيراته عن واقع اللغة، ولا عن دائرة الموضوعية.

ولم يكتف بالوصف فقط؛ بل لجأ إلى التفسير والتحليل يقول: "فقف علي هذه الأشياء حيث وقفوا ثمّ فسر"[48].

وقاده حدسه اللغوي إلى استحداث أمثلة لم يتكلم بها أطلق عليها مصطلح التمثيل مميزا بين الأمثلة التي اقترحها من أجل التفسير والتوضيح، وبين الاستعمال اللغوي المسموع، من ذلك قوله: "وهذا تمثيل ولا يتكلّم به"، "فهذا تمثيل، ولكنه لم يستعمل في الكلام"[49].

5.3 المصطلحات اللغوية:

تكثر المصطلحات اللغوية في الكتاب إما نقلا عن شيوخه أو ابتداعا، كما تجيء بعناوين مطولة يعمد فيها سيبويه إلى الوصف، والشرح، والتمثيل؛ ليعطي فكرة عنها، ومن ذلك: باب الفاعل الذي لم يتعدّه فعله إلى مفعول[50]...

وهناك مصطلحات قدمها بأسلوب الوصف، باب (التنازع) الذي قدمه بعنوان وصفي قال: "هذا باب الفاعلين والمفعولين اللذين كلّ واحد منهما يفعل بفاعله مثل الذي يفعل به وما كان نحو ذلك"[51].

وباب (الاشتغال) وصفه: "هذا باب ما يكون فيه الاسم مبنياً علي الفعل قدم أو أخر وما يكون فيه الفعل مبنياً علي الاسم"[52]

وزيادة على الوصف فإنه كثيرا ما يلجأ إلى التمثيل، وتفصيل الوصف للتدليل على عنوان الباب الذي يريد الكلام عنه، من ذلك العنوان الذي عقده لباب الحال وهو: "باب ما يعمل فيه الفعل فينتصب وهو حال وقع فيه الفعل، وليس بمفعول، كالثوب في قولك: كسوت الثوب، وفي قولك: كسوت زيداً الثوب؛ لأن الثوب ليس بحال وقع فيها الفعل، ولكنه مفعول كالأول: ألا ترى أنه يكون معرفة ويكون معناه ثانياً كمعناه أولاً إذا قلت: كسوت الثوب، وكمعناه إذا كان بمنزلة الفاعل إذا قلت: كسي الثوب"[53].

4. خاتمة:

وبعد أن عرضنا لما جاء في الكتاب من ملامح المنهج الوصفي حسب اجتهادات الباحثين، فإننا نقول ومن باب الإنصاف وعدم التجني على النحو العربي ومحاكمته بمناهج مستحدثة نميل إلى:

- ترجيح كفّة أن التشابه والاتفاق لا يعني التماثل؛ ذلك أنه ثمة اختلافات بين المنهج الوصفي وبين منهج النحاة الأوائل في الغاية والهدف والوسيلة، ونرى:

- أن سيبويه وغيره من النحّاة الأوائل، كان هدفهم التأصيل؛ أي وضع قوانين للحفاظ علي اللغة العربية، والوقاية من اللحن. وحفظ القرآن الكريم وفهمه وتدارسه.

- تاريخ النحو شامخ لا يقوى أحد من المنتقدين على هدمه، ولا تغيير معطياته وتظل تلك المقاربات مجرد اقتراحات تخطئ وتقارب الصواب، فلا يزال النحو يثبت جدارته في البحث العلمي، فقيمة التراث تظهر من خلال الجهد الذي بذله سيبويه في جمع المادة ودراستها، ونحن في أمس الحاجة إلى إعادة اكتشاف تراثنا ولكن بنظرة واعية، نظرة بناء لا هدم.

- يمثل "الكتاب" النموذج الأعلى لمن يود البحث في اللغة ومعرفة خصائصها والكشف عن أسرارها، هو وصنوه كتاب "الخصائص لابن جني" الذي يبحث في نشأة اللغة وأصولها وماهيتها، ونحسب أنه بالإمكان بناء نظرية لسانية عربية خالصة تعتمد منهج العرب في التحليل، المنهج الشمولي الذي لا يجد مانعا في دراسة اللغة دراسة شاملة دون فصل بين مستوياتها، يحكمه الاستعمال والقياس المنوط بالذوق، تلك الاستعمالات التي تتنوع بين استعمال لغويّ مفترض، أو استعمال لغويّ موجود، أو قياس من أقيسة النحويين التي يحكمها المنطق الطبيعي للغة، أو تأويل نحويّ محتمل تمليه ظروف التخاطب وملابساته.

- وما يمكن أن ننتهي إليه هو حاجة الدرس اللغوي العربي المعاصر إلى اللسانيات المعاصرة، لا احتياج نقص وإنما الحاجة إلى وجود موطن للعلم في العالم العربي قوامه دراسة التراث ووصفه، بحاجة إلى استعارة الفائدة وتجديد الوصف، ونتجاوز البحث في اللغة إلى البحث في نحو اللغة وأسرارها.

5. الهوامش:

[1] ينظر، محمود محمد شاكر، مقدمة في نشأة اللغة والنحو والطبقات الأولى من النحاة، ضمن كتاب شرح - الأشموني على ألفية ابن مالك- (1352هـ، 1933م)، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، المطبعة المصرية، القاهرة، ط1، ص27، 28.

[2] جيرار تروبو، نشأة النحو العربي في ضوء كتاب سيبويه (1978م)، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، (عمان، الأردن)، العدد:1، ص136،137.

[3] ابن النديم، أبو الفرج محمد بن اسحاق،(د.ت)، الفهرست، دار المعرفة، بيروت ، لبنان، ص76، 77.

[4] ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين، لسان العرب، (د.ت)، دار صادر، بيروت، لبنان، ج 14، ص366، مادة (نهج).

[5] عبد الله ربيع محمود، من ملامح المنهج العلمي عند علماء العربية، (1979م)، مجلة كلية اللغة العربية، الإمام محمد بن سعود، (السعودية)، العدد: 9، ص81.

[6] ينظر، دي سوسير، فرديناند، محاضرات في اللسانيات العامة، (1987م)، تر: عبد القادر قنيني، إفريقيا الشرق، ص31،32.

[7] تمام حسان، اللغة بين المعيارية والوصفية، (1400هـ، 1980م)، مطبعة النجاح الجديدة، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ص22، 23.

[8] ابن السراج، أبو بكر محمد بن السِّري بن سهل، الأصول في النحو، (1405هـ، 1985م)، تح: عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، ط1، بيروت، لبنان، ج1، ص35.

[9] ينظر، تمام حسان، اللغة بين المعيارية والوصفية، ص24.

[10] عبده الراجحي، النحو العربي والنحو الحديث بحث في المنهج، (1979م)، دار النهضة للطباعة والنشر، بيروت، ص55، 56.

[11] ينظر، سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، الكتاب، (1408هـ، 1988م)، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، ج1، ص 275،277.

[12] نفسه، ص 334.

[13] أحمد سليمان ياقوت، الكتاب بين المعيارية والوصفية،(1989م)، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ط1، ص44.

[14] الكتاب، ج2، ص102،103.

[15] نفسه، ص 113.

[16] ابن جني، أبو الفتح عثمان، المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، (1994م)، تح: علي النجدي ناصف وعبد الحليم النجار، وعبد الفتاح اسماعيل شلبي، وزارة الأوقاف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، مصر، ج2، ص211.

[17] ابن هشام، جمال الدين الأنصاري، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، (1421هـ، 2000م)، تح: عبد اللطيف محمد الخطيب، دار التراث، الكويت، ط1، ص627.

[18] سيبويه، الكتاب، ص387.

[19] نفسه، ص402.

[20] نفسه، ج1، ص65.

[21] نفسه، ص 66.

[22] نفسه، ج2، ص 163.

[23] نفسه، ج1، ص375.

[24] نفسه، ج2، ص247.

[25] ينظر، عبده الراجحي، النحو العربي والدرس الحديث، بحث في المنهج، ص55.

[26] ينظر، نوزاد حسن أحمد،المنهج الوصفي في كتاب سيبويه، (1996م)، منشورات جامعة قار يونس، ط1، بنغازي، ص26.

[27] الأنباري ، أبو البركات عبد الرحمن، لمع الأدلة، مع الإغراب في جدل الإعراب، (1971م)، تح: سعيد الأفغاني، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع،(بيروت، لبنان)، ط2، ص81.

[28] السيوطي، جلال الدين، الاقتراح في أصول النحو، (1381هـ،1961م)، ضبط وتعليق: عبد الحكيم عطية، مراجعة وتقديم: علاء الدين عطية، دار البيروني، ص67.

[29] بابتي عزيزة فوال، المعجم المفصل في النحو العربي،(1992م)، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، ص554.

[30] ينظر، سيبويه، الكتاب، ص 423، 319، 315.

[31] ينظر، نوزاد حسن أحمد، المنهج الوصفي في كتاب سيبويه، ص 40،41.

[32] ينظر، سيبويه، الكتاب، ص 423.

[33] ينظر، نوزاد حسن أحمد، المنهج الوصفي في كتاب سيبويه، ص 49.

[34] سيبويه، الكتاب، ص 252.

[35] نفسه، ص 334.

[36] نفسه، ص23.

[37] نفسه، ص 13، 23.

[38] نفسه، ص225.

[39] نفسه، ج4، ص364.

[40] نفسه، ص 12.

[41] نفسه، ص 25، 26.

[42] ينظر، نوزاد حسن أحمد، المنهج الوصفي في كتاب سيبويه، ص 62.

[43] سيبويه، الكتاب، ج 1، ص 14.

[44] ينظر، نوزاد حسن أحمد، المنهج الوصفي في كتاب سيبويه، ص74، عبده الراجحي، النحو العربي والدرس الحديث، ص55.

[45] سيبويه، الكتاب، ج1، ص 237.

[46] نفسه، ص 252، 266، 419.

[47] نفسه، ص 47.

[48] نفسه، ص 266.

[49] نفسه، ص 83، ص 374

[50] نفسه، ص 33.

[51] الكتاب، ص 73.

[52] نفسه، ص85.

[53] نفسه، ص44.